بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 29 مارس 2023

ابن خلدون
بين التاريخ وفلسفة التاريخ

نبيل بن عبد اللطيف
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

المستخلص:

يعرض البحث أهمّ ملامح تصوّر ابن خلدون للتّاريخ، والوقوف على العوائق الإبستمولوجية التي تمنعه من أن يكون علما دقيقا. وفي هذا الاتجاه يحاول، في كتاب المقدّمة خاصة، أن يرسم تصوّرا خاصا لضمان الشروط العلمية لأن يصبح التاريخ علما إنسانيا يمكّننا من دراسة المجتمعات الإنسانية لا في ماضيها فقط، بل كذلك في حاضرها واستشراف مستقبلها. إنّ معنى الإنسان في فكر ابن خلدون يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهومه للتاريخ، حيث يبرز هذا التاريخ بصفته المجال الذي يتكوّن فيه الوعي الإنساني؛ وذلك بواسطة التأمّل والتعقّل؛ لأنّ الأحداث التاريخية في التصوّر الخلدوني ليست مجرّد أحداث عابرة، بل تعبّر عن المعاني العميقة للإنسانية وتدعو إلى استخلاص الدروس. ولكن استخلاص الدروس من التاريخ وتأمّل أحداثه يبرزان لنا أنّ الوقائع التاريخية تخضع إلى منطق وضرورة، حيث من الصعب اعتبارها عشوائية، ويمكن أن نتحدّث عن التاريخ بما هو «ماضي»، ولكن هذا الماضي يحيل، بالتوازي، على الحاضر والمستقبل. ونبيّن هنا أنّ التاريخ هو وعي إنساني يمثّل معنى من معاني الحكمة البشرية؛ لأنّه يقوم على النظر والتدبّر، وخاصة التعمّق في معرفة الأسباب وتقصّي العلل.

وهذا التصوّر الخلدوني للتاريخ من حيث قيمته ومكانته الاجتماعية والفلسفية يمكن مقارنته ببعض فلسفات التاريخ المعروفة في تاريخ الفكر الإنساني مثل تصوّر هيغل وماركس وبرغسون... وذلك من أجل أن أبيّن في نهاية الأمر تميّز ابن خلدون وأسبقيّته في هذا المجال بالذات. وهذه المقارنة قد تبيّن لنا أن ابن خلدون لا يكتفي بأن يكون مؤرّخا ناقلا للأحداث، بل هو صاحب فلسفة للتاريخ كذلك.

مقدّمة:

يبدو أنّ اهتمام ابن خلدون بالتاريخ لم يكن بمثل اهتمام معاصريه أو سابقيه، العرب منهم خاصة، وهذا في حدّ ذاته هو الذي يجعلنا نهتمّ بطرح المسألة التاريخية عند صاحب كتاب المقدّمة، لا بالنظر إلى التاريخ بوصفه أحداثا ووقائع فحسب، بل بالنظر إلى تصوّره للتاريخ كعلم ومحاولته وضع أسس علمية له، ليتحوّل مفكّرنا بذلك إلى «فيلسوف التاريخ» أو «إبستمولوجي التاريخ». وهذا التحوّل الجوهري من شأنه أن يضع بين أيدينا فلسفة كاملة للتاريخ، هي فلسفة خلدونية لها معالمها الفريدة التي تحمل رؤيته للوجود عموما، وللمجتمعات التي تعاقبت، ولكن مستلهما منها كذلك استشراف المستقبل برؤية الناقد الموضوعي.

صحيح أنّ الفكر العربي قبل ابن خلدون قد اهتمّ بالتاريخ، وكان هناك العديد من المؤرخين الذين اشتهروا بمؤلفاتهم التاريخية الكبرى، ويمكن أن نذكر من بينهم المسعودي وابن إسحاق والطبري وابن الكلبي والواقدي والأسدي وغيرهم. ولكن معظم هؤلاء، بشهادة ابن خلدون نفسه، كانوا منشغلين في أعمالهم بهدف وحيد هو النقل والإخبار، دون التدقيق و«النظر» و«التأمّل». ولهذا كان الاشتغال بالتاريخ عرضة دائما لأساليب غير علمية يغلب عليها التقليد وغياب التحقيق، والمبالغة في نقل الرّوايات، وخاصّة «الجهل بطبائع العمران» حسب تعبير ابن خلدون في الفصل الأوّل من المقدّمة.

وهذا ما يجعلنا، من جهة أخرى، نفهم بأنّ فلسفة التاريخ الخلدونية قامت على رؤية نقدية لمعاصريه وسابقيه، فكان تصوّره للتاريخ بمثابة التصحيح لمسار ساد طويلا في التاريخ العربي والإسلامي. ولكنّ هذا النقد، وإن كان في منطلقه نقدا للفكر العربي في حقبة معينة من الزمن، فإنّه هو الذي سيجعل من ابن خلدون أحد كبار أعلام الفكر التاريخي لا عند العرب فقد، بل قد يتجاوز ذلك بكثير. وهذه النتيجة يمكن أن نخلص إليها في حدود مقارنة ممكنة بين صاحب المقدّمة وأعلام فلسفة التاريخ مثل هيغل وماركس وغيرهما. فعندما ينظر إلى التاريخ بصفته وعيا إنسانيا ويحمّله رؤيته النقدية للواقع، وحين يجعل من هذا التاريخ موضوعا لتأمّل الحاضر، أو لمّا يجعله منطلقا لاستشراف المستقبل الإنساني، ويبدع في سياق ذلك مفاهيم علمية خاصة به على غرار «العصبية»، فإنّ ابن خلدون لا يمكنه إلّا أن يكون متميّزا عن هؤلاء المؤرّخين الذين انتقدهم وبيّن تهافت أعمالهم.

ويمكن أن يكون أهمّ عمل قام به في هذا الصدد هو العمل المنهجي، حيث رسم في فلسفته للتاريخ المنهج القويم لجعل التاريخ علما بالمعنى الابستمولوجي. فالتنظير لمثل هذا التحوّل الفكري هو الذي من شأنه أن يصنّف ابن خلدون ضمن أصحاب فلسفات التاريخ الكبار، ويجعلنا نتساءل بدورنا عن مدى دقّة المفاهيم الخلدونية في هذا المجال ودور فلسفة التاريخ عنده في التعبير عن الحقائق الاجتماعية والإنسانية عموما؛ وذلك في سياق مقارنة قد تكون ممكنة بينه وبين بعض أقطاب فلسفة التاريخ.

التاريخ والوعي الإنساني:

إنّ معنى الإنسان في فكر ابن خلدون يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهومه للتاريخ، حيث يتجلّى هذا التاريخ بصفته المجال الذي يتكوّن فيه الوعي الإنساني؛ وذلك بواسطة التأمّل والتعقّل؛ لأنّ الأحداث التاريخية في العُرف الخلدوني ليست مجرّد أحداث عابرة، بل هي تعبّر عن المعاني العميقة للإنسانية التي تدعو إلى الاعتبار أوّلا وأساسا. والاعتبار من التاريخ وتأمّل أحداثه يبرز لنا أنّ الوقائع التاريخية تخضع إلى منطق وضرورة، حيث من الصعب اعتبارها أحداثا عشوائية، ويمكن أن نتحدّث عن التاريخ بما هو ماضي، ولكن هذا الماضي يحيل بالتوازي على الحاضر والمستقبل. وهذا التصوّر سنجده فيما بعد لدى الفيلسوف برغسون حيث تشكّل الذاكرة الوعي الإنساني. فبالإمكان أن تكون هذه الذاكرة التاريخية ضيّقة مثلا أو محدودة الأفق، بمعنى لا تحمل من الماضي إلّا جزء ضئيلا منه، لكنّها تكون دائما حاضرة، وفي غيابها يغيب الوعي الإنساني تماما، ويمكن أن نقول بهذا المعنى إنّ «وعيا لا يحتفظ بشيء من ماضيه ولا ينفك ينسى نفسه سيتلاشى وسينبعث في كلّ لحظة (...) كلّ وعي هو إذن ذاكرة بمعنى احتفاظ بالماضي في الحاضر»[1].

إنّ التاريخ بما هو وعي إنساني، على أهمّيته القصوى، يمثّل معنى من معاني الحكمة البشرية؛ لأنّه يقوم على النظر والتدبّر، وخاصة محاولة الذهاب بعيدا في معرفة الأسباب وتقصّي العلل. فكما يؤكّد ذلك ابن خلدون فإنّ «فنّ التّاريخ من الفنون الّتي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيّام والدّول، والسّوابق من القرون الأوّل، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتؤدّي لنا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتّسع للدّول فيها النّطاق والمجال، وعمّروا الأرض حتّى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزّوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق.»[2]. إنّ التاريخ بهذا المعنى هو تأمّل في التطوّر، ذلك التطوّر الزمني الذي يعود عودة أبدية، حيث كلّ نهاية لحدث تاريخي هي بداية لدورة جديدة تستدعي منّا اهتماما جديدا. والفيلسوف الألماني هيجل قد أكّد هو نفسه على قيمة تأمّل التاريخ كسيرورة أبدية، وهو تأمّل يفضي إلى إدراك صفة الحرّية في الكائنات.

فمفهوم التطوّر في المنظور الهيجلي هو مفهوم عام جدا، وهو بشكل عام يحيل على فكرة الحيوية والحركة، إنّه إعلان عن الحياة، وهو كذلك الشمولية في الطبيعة، وفي كل ما هو حي في أضعف الكائنات

1 Bergson, Henri, L'énergie spirituelle, Alcan, Paris 1920, P.5

2 ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلّد الأوّل: المقدّمة، دار الكتب العلميّة، بيروت 2010، ص3

وأرقها. وهذا التطوّر، من جهة أخرى، يمثّل إنتاجا للكائن، لكن الكائن الذي يبقى متماهيا مع نفسه، ويمكن اعتباره كذلك بمثابة الإبداع الخالد للعالم والعود الأبدي للروح بذاته، فهو حركة مطلقة وفي الوقت نفسه راحة مطلقة. إنّه توسّط جديد مع الذات، «إنّ في ذلك الكائن، الوجود لدن الذات، الفكرة، القدرة على الرجوع إلى الذات، الاتّحاد مع الآخر وامتلاك الذات، هذه القدرة، هذه القوّة على الوجود لدن الذات، مع نفي الذات، هي أيضا حرّية الإنسان»[3].

المنهج العلمي في التاريخ:

كان تصوّر ابن خلدون للتاريخ يضع الحجر الأساسي لحريّة الباحث المؤرّخ؛ وذلك من خلال فرض منهج التحقيق والدعوة إلى تجاوز كلّ العوائق الابستمولوجية لقيام التاريخ كعلم، وليس بصفته مجرّد نقل للأخبار والأحداث بطرائق يغلب عليها السرد دون علم بقواعد البحث الإنساني. ولذلك يعتبر في المقدّمة أنّ السائد في عصره أنّ التحقيق نادر الوجود، ، والتنقيح في الغالب «كليل»، وأكثر الأخبار الواردة في كتب التاريخ يغلب عليها الغلط والوهم، وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ ابن خلدون يشير إلى وجود طبيعة بشرية عاشقة للتقليد، وأنّ هذا التقليد «عريق في الآدميين وسليل»، كما أنّ هذا الفنّ «فنّ التاريخ» لم يسلم من تدخّل المتطفّلين الّذين ليست لهم القدرة ولا الكفاءة العلمية اللازمة للخوض في أعماقه، بل إنّ الجهل هو السائد في هذا السياق، فنجده يقول في المقدّمة: «مرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحقّ لا يقاوم سلطانه، والباطل يُقذف بشهاب النّظر شيطانه، والنّاقل إنّما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصّحيح إذا تمقّل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويُصقل».[4] ولقد قلنا إنّ هذا المنهج هو الّذي يجعل من علم التاريخ، كما صاغه ابن خلدون، معبّرا عن وعي الإنسان بذاته وبعالمه، بحيث يكون الباحث التاريخي فاعلا في الأحداث التي يخضعها لمنطق العقل والتمحيص والتحقيق. هذا هو الوعي التاريخي، ولكنه وعي بالأحداث الماضية الذي يضعنا في نوع من الاستباق للمستقبل، فالفكر في أيّ لحظة من لحظات تفكيره يهتمّ بما كان، وبما هو كائن، ولكن يهتمّ بهما من ناحية ما سيكون عليه المستقبل، فالوعي كما يقول «برغسون» «لا يوجد دون ضرب من الانتباه للحياة. فالمستقبل ماثل هناك أمامنا، يدعونا ويجذبنا إليه»[5] فبتلك الطريقة فقط نسعى إلى التقدّم في سياق الزمن ونعمل على التحرّر من الأشياء التي كبّلتنا، وبهذا المعنى فكلّ أفعال الإنسان هي نوع من الانفتاح على المستقبل. فوظيفة الوعي الأساسية هي استحضار ما لم يعد موجودا واستباق ما لم يوجد بعد. لن يكون هنالك حاضر بالنسبة إلى الوعي إذا اختزلنا الحاضر في اللحظة، فتلك اللحظة ليست سوى الإطار

3 هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة: مقدّمة حول منظومة الفلسفة وتاريخها، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 2022، ص98

4 تاريخ ابن خلدون، المجلد الأوّل: المقدّمة، ص4

5 Bergson, L’énergie spirituelle, P.5

النظري المحض الذي يفصل الماضي عن المستقبل، ويمكن القول بلغة أخرى إنّ الوعي هو همزة الوصل بين ما كان وما سيكون، وجسر يصل بين الماضي والحاضر[6].

هذا الجسر بين الماضي والحاضر هو الذي نجد إشارة إليه في المقدّمة عندما يتحدّث عن فضل التاريخ من حيث تعدّد فوائده وعمق طبيعته، إذ إنّه يتعلّق بالبحث في «أحوال الماضي من الأمم في أخلاقهم» ويرتبط من قريب بـ «أحوال الدين والدنيا»، ثمّ إنّ التاريخ، من جهة أخرى، أو البحث التاريخي، له شروط أساسية لعلّ أهمّها وفرة المعارف والمعلومات لدى الباحث والمؤرّخ، وحسن النظر والتثبّت لتجنّب المزلّات والمغالط. وكثيرا ما تتأتّى هذه الأخطاء لدى المؤرّخين من اعتمادهم على مجرّد النقل دون الاستناد إلى ما يسمّيه صاحب المقدّمة «أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع السياسي». ويضيف ابن خلدون في هذا السياق أنّ «كثيرا ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين وأئمّة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرّد النقل غثّا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار»[7].

و يمكن القول بهذا المعنى إنّ التاريخ إذا مورس بالقواعد العلمية الصحيحة والأقرب إلى الموضوعية، يكون حينئذ قادرا على معالجة أحوال الحاضر، والمراهنة كذلك على التخطيط للمستقبل لبناء الإنسان في أبعاده الأخلاقية والاجتماعية والوجودية... ولكن الواقع أنّ فنّ التاريخ كثيرا ما حاد عن هذا الهدف؛ لأنّ العديد من المؤرّخين كانوا مجرّد حفّاظ للأحاديث ولآراء ضعيفة المصدر يتناقلها العامة وضعفة العقول من غير بحث ولا رويّة. وكان على المؤرّخ أن يقتنع أوّلا أنّ الحقيقة الإنسانية في جوهرها تتجلّى في كل الحقبات التاريخية، ويكفي أن تكون لنا القدرة على تأمّلها؛ ذلك أنّ هيجل على سبيل المثال يؤكّد أنّ الجوهر يتجلّى ظاهريا، وأنّ لا شيء في الظاهر غائب عن الجوهر والعكس بالعكس، فالحقيقة تظهر في فترات الصيرورة ثمّ تغترب لكي تظهر بشكل جديد غنيّ بمختلف اللحظات الصعبة والمتأزّمة الّتي تتجاوزها وتحتفظ بها.

ولذلك تحمل كلّ فترة من فترات التاريخ جنين الحقيقة المطلقة «كما يحمل البرعم الظّهور المقبل للفاكهة»، وتكون الحقيقة قابلة لأن تتجلّى في عهود معيّنة من التاريخ، في الحضارة الإغريقيّة «قبل قيام الإمبراطورية المقدونية، أو في الثورة الفرنسية والفترة النابولينية مثلا.»[8]. ولسبب كهذا اعتبر هيجل أنّ الفكر الحر ملموس بذاته جوهريا؛ أي هو فكر حيّ ويتحرّك من تلقاء ذاته، ذلك أنّ «الطبيعة اللامتناهية للروح، إنّما هي سيرورتها الداخلية القائمة على عدم الرّاحة، والقائمة جوهريّا على الإنتاج والوجود بإنتاجها،

6 نفسه.

7 المقدّمة، فصل في فضل علم التاريخ، ص8

8 أنظر، يافوت، سالم، الخلدونيّة في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت 1994، ص127

ويمكننا تصوّر هذه الحركة كتطوّر. إنّ فعل الملموس هو تطوّر أساسا وفيه مفارقة، وإذا أدركنا تعيين الفوارق التي تحدث ـ والسيرورة تؤدّي بالضرورة إلى شيء آخر ـ فإنّ الحركة تتجلّى كتطوّر.

إنّ هذه الفوارق تتجلّى إذا توقّفنا حتّى أمام التمثّل المعروف للتّطوّر، غير أنّ الذي يهمّ هو التأمّل في هذا التّمثّل»[9].

إنّ فعل التّأمّل في الأحداث الماضية يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والعصور، والمعرفة بأخلاق الأمم والشعوب والعوائد والنّحل وكذلك المذاهب وسائر الأحوال. ومن جهة أخرى، من الضروري للباحث في التاريخ أنّ يحيط بمعرفة الحاضر والمماثلة بينه وبين الغائب والنّظر في الاختلاف بينهما. ولابدّ كذلك من البحث في أصل الدّول وأسباب ظهورها، والقائمين عليها وأخبارهم. والسبب في البحث في هذه الأشياء هو أن يكون المؤرّخ مستوعبا لأسباب كلّ حدث ومتمكّنا من أصل الخبر. ومن هذا المنطلق، فهو يقتبس صحّة الأخبار الواردة عليه بمدى تطابقها مع القواعد التي لديه، وهذا هو مبدأ القياس العلمي.[10].

هذا القياس الذي نفهم من خلاله أنّ فلسفة التاريخ تتحدّد بالعقل أساسا، وهو عقل علمي يمكّننا من تعقّل الواقع الإنساني في أبعاده المختلفة، فيتجلّى التاريخ بذلك كذاكرة للوعي، فهو يقوم بالنسبة إلى الإنسان مقام العقل بالنسبة إلى الفرد كما يؤكّد على ذلك الفيلسوف شوبنهاور. فبفضل عقله يتمكّن الإنسان من كسر الحدود الضيّقة للحاضر المرئي، وبالتوازي مع ذلك يتعرّف على الماضي في امتداداته اللامتناهية؛ ذلك أنّ هذا الماضي يمثّل دائما أصل الحاضر. وهذه المعرفة بالماضي هي وحدها الّتي تزوّد العقل التاريخي بآليات تعقّل الحاضر حتّى يتمكّن من التفكير في المستقبل برؤية استشرافية أكثر وضوحا.

التاريخ واستشراف المستقبل

وفي هذا السياق بالذات، يمكن القول إنّ أيّ شعب من الشعوب، حين يكون غير ملمّ بتاريخه الخاص ومتعقّل له، يكون في المقابل محدودا بحاضر الجيل الراهن، ولا يفهم وجوده الخاص وطبيعته، ويكون أقلّ قدرة على استشراف المستقبل. وهكذا، فإنّ التاريخ وحده هو الذي يمنح شعبا وعيا تاما بذاته، وهنا ننظر إلى التاريخ بصفته وعيا متعقّلا للنوع الإنساني، وهو وعي تأمّلي بالأساس[11]. وهذا الوعي التأمّلي هو الذي قاد المنطق التاريخي الخلدوني إلى اكتشاف بعض القوانين

9 هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ص ص 90-91

10 أنظر، المقدّمة، فصل فضل علم التاريخ، ص22

11 Schopenhauer, Le monde comme volonté et représentation, Livre III, P.U.F.1978, P.1185

الاجتماعية التي تحدد المجموعات البشريّة، خاصّة في دراسته للمغرب الإسلامي (تونس والجزائر والمغرب الأقصى حاليا)، في القرن الرابع عشر ميلادي. وتتميّز تلك الحقبة أساسا ببداية أفول الثقافة الإسلامية وسقوطها (العمران بالمعنى الذي يستخدمه ابن خلدون)، ويتجلّى ذلك السقوط في بداية انهيار الدولة الإسلامية بالمغرب والأندلس. وكان ابن خلدون على وعي تاريخي بهذا الحدث الجسيم، وعبّر عنه بعبارات خاصة مثل «الهرم» و«التلاشي»، وهي عبارات ينزّلها ضمن الواقع المادي الطبيعي، إذ إنّ ظاهرة الانتكاس هي ظاهرة طبيعية في كلّ حضارة، وفي كلّ دولة، ويقول في كتاب المقدّمة: «وقد قدّمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبيّنا أنّها تحدث للدّولة بالطبع، وأنّها كلّها أمور طبيعيّة لها. وإذا كان الهرم طبيعيّا في الدّولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطّبيعيّة، كما يحدث الهرم في المزاج الحيوانيّ. والهرم من الأمراض المزمنة الّتي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها، لما أنّه طبيعيّ، والأمور الطّبيعيّة لا تتبدّل. وقد يتنبّه كثير من أهل الدّول ممّن له يقظة في السّياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظنّ أنّه ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدّولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنّه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدّولة وغفلتهم، وليس كذلك، فإنّها أمور طبيعيّة للدّولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيها»[12].

و في هذا السياق، يلتقي ماركس مع ابن خلدون، إذ كان كلّ منهما واعيا بالتميّز الدلالي لظاهرة الانتكاس، فابن خلدون يتحدّث عنها بعبارات «الهرم» و«التلاشي» كما أسلفنا، وماركس يسجّل في سياق حديثه عن الإنتاج الرأسمالي أنّ هذا الإنتاج «يكوّن بنفسه نفيه الذاتي على نحو الحتميّة المعتملة في تحوّلات الطبيعة، إنّه نفي النّفي»[13].

وفي سياق تحليل «البذخ» و«المتعة» كرمزين للناتج في أنظمة الإنتاج التقليدية، يقول ابن خلدون: «إنّ أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدّعة وانغمسوا في النّعيم والتّرف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الّذي يسوسهم والحامية الّتي تولّت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار الّتي تحوطهم (...) وقد ألقوا السّلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزّلوا منزلة النّساء والولدان».[14]

أمّا ماركس، فيقول في هذا الاتجاه «في أنظمة الإنتاج القديمة: «المالك الرئيسي للنّاتج الفائض الذي يتعامل مع التاجر والنخّاس والمولى والدولة (في شخص المستبد الشرقي مثلا) هو من يرمز إلى التّرف الموجّه نحو المتعة»[15].

12 المقدّمة، الباب 3، الفصل 46، ص229

13 Marx, (K), Le Capital, Paris, éd. sociales, 1960, Livre I, P.205

14 المقدّمة، الباب 2، الفصل 5، ص99. آنظر كذلك، يافوت، سالم، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص140

15 Marx, (K), Le Capital, Livre III, P.339

إنّنا نرى بوضوح أهمّية مفهوم الدّولة وحضورها في فكر ابن خلدون، ولكنّ الدولة بالمعنى الّذي تكون فيه تاريخيّة وتعبّر دائما عن حاضر المجتمع ودرجة تطوّره. ذلك أنّ الحياة في التاريخ هي الحاضر، وهذا الحاضر ينبغي أن تكون له الأولويّة الفلسفيّة، بحكم أنّ الماضي كبعد تام ليس له إلّا قيمة تفسيريّة. ولا شكّ أنّ ما يميّز حياة الفكرة في تاريخ المجتمعات هو ظهورها بديمومتها وتجدّدها وحضورها المتألّق على الدوّام. ولأجل ذلك كانت الدولة هي «البوتقة التي تنصهر فيها تلك الفكرة كعقل مطلق، يتجسّد في السيادة القائمة وفي واقع الدولة وديمومتها»[16].

إنّ التاريخ الإنساني في التصوّر الخلدوني يشهد دائما على طابعه الدائري، من حيث إنّه يتكوّن من حلقات هي بمثابة التعاقب الدوري. وهذا التعاقب نلاحظه في الحضارات كما نلاحظه أيضا في الدولة؛ ذلك أنّ التاريخ هو تاريخ المولد، والنشأة، والقوّة في ذروتها، ثمّ السقوط والانتكاس. تلك هي «طبائع العمران» و«عوائد العمران» حسب ابن خلدون وإنها لا يمكنها أن تخرج عن هذه السّنّة الطبيعية، فمولد الحضارة، ومولد الدولة شيئان طبيعيان، تماما مثل مولد الإنسان، فهو يشهد عمرا معيّنا ومراحل معلومة، تنتهي دائما بالموت وبمولد جديد. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه «العود الأبدي» للتاريخ، وقد أشار إليه ابن خلدون في عدّة مواضع من المقدّمة خاصة. ورغم ذلك، فإنّ هذه الدّورة التي يشهدها التاريخ لا معنى لها إلّا في حضور مفهوم العصبية، أو لنقل عصبية عامة واحدة.[17]

التاريخ هو سلسلة، وهذه السلسلة لا يمكن أن تسير في خطّ مستقيم بل كدائرة تعود إلى الذات على حد تعبير هيغل. ويتكوّن محيط هذه الدائرة من كمّية كبيرة من الدوائر، إذ دائما يكون التطوّر حركة تمرّ في جملة تطوّرات، ومجموع هذه السلسة هو تعاقب تطوّرات عائدة إلى الذات. فالتطوّر يعود إلى ذاته ولا مفرّ له من معرفة نفسه ومن الظهور والتّموضع لكي يعلم ذاته، إذ لا مناص له من «استنفاذ نفسه، من التّموضع الكلّي، حتّى يتجلّى تماما ويهبط إلى أعماق ذاته ويكشف ذلك»[18].

قانون المطابقة

هذا التاريخ من حيث هو إخبار عن الواقعات، لا بدّ في صدقه وصحّته من إتّباع قاعدة أساسيّة يذكرها ابن خلدون، وهي المطابقة. والمطابقة تعبّر عن قانون في التمييز بين الحق والباطل عند النظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، وتمييز ما يلحقه من الأحوال بمقتضى طبعه، فما يكون عارضا لا يُعتدّ به. وبهذه الطريقة، فنحن أمام قانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهاني لا يقبل

16 يافوت، سالم، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص128

17 أنظر، الجابري محمّد عابد، العصبيّة والدولة: معالم نظريّة خلدونيّة في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت 2001، ص216

18 هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ص99

الشّك، ولأجل ذلك يقول ابن خلدون: «وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله ممّا نحكم بتزييفه. وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرّى به المؤرّخون طريق الصّدق والصّواب فيما ينقلونه.»[19]. ويمكن القول في هذا السياق، أنّ معرفة الأحداث التاريخية ليست هي الهدف الأصلي من البحث في التاريخ ورواية الأحداث والوقائع، بل الأهمّ من كلّ ذلك معرفة مدى تطابقها مع الواقع، لأنّ معرفة الماضي تبقى معرفة عقيمة دون التأكّد من تأثيراتها المباشرة في الواقع الراهن أو في المستقبل القادم. فنحن في الحقيقة لا نتناول الماضي فقط في تناولنا للتاريخ، وإنّما نتناول الراهن، أي الحاضر الذي نحياه بكامل تفاصيله؛ ذلك أنّ العنصر الخارجي وحده قد تلاشى في التاريخ، هذا العنصر المتكوّن أساسا من البشر ومصائرهم. وأمّا الذي يبقى، فهو إنتاجهم؛ أي ما أبدعوه من أعمال. فالمقصود ليس معرفة تاريخية بل معرفة الحاضر الذي نحن نعيشه فعلا، وبهذا المعنى علينا الاهتمام بالماهيّة التي هي ماهيّتنا، «ذلك أنّ علما تاريخيا صرفا إنّما يقدّم ربحا قليلا، وهو يظلّ بالنسبة إليّ شيئا غريبا على الدوام»[20].

ولعلّ تأثير التاريخ في الحاضر الراهن أو في المستقبل القادم يتأتّى من طبيعته الأصلية الشمولية والكليّة؛ ذلك أنّه حاوي لكل الأحداث والوقائع البشرية التي تهمّ الإنسان في بعده الفردي أو في بعده الاجتماعي، وهو من جهة أخرى شاهد على إنجازات هذا الكائن وإبداعاته عبر سلسلة الزمن؛ وذلك في مستويات عديدة اجتماعية واقتصادية وميتافيزيقية، وفي هذا الاتجاه يقول ابن خلدون: «اعلم أنّه لمّا كانت حقيقة التّاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الانسانيّ الّذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التّوحّش والتّأنّس والعصبيّات وأصناف التّغلّبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدّول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصّنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. ولمّا كان الكذب متطرّقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التّشيّعات للآراء والمذاهب، فإنّ النّفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقّه من التّمحيص والنّظر حتّى تتبيّن صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيّع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأوّل وهلة، وكان ذلك الميل والتّشيّع غطاء على عين بصيرتها والتّمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله. ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضا الثّقة بالنّاقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التّعديل والتّجريح؛ ومنها الذّهول عن المقاصد، فكثير من النّاقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنّه وتخمينه فيقع في الكذب؛ ومنها توهّم الصّدق وهو كثير، وإنّما يجيء في الأكثر من جهة الثّقة بالنّاقلين، ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التّلبيس والتّصنّع (...) ومن الأسباب المقتضية له أيضا هي سابقة على جميع ما تقدّم الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإنّ كلّ حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السّامع

19 المقدّمة، فصل في طبيعة العمران في الخليقة، ص29

20 هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ص122

عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصّدق من الكذب»[21].

يعيب ابن خلدون على المؤرخين عدم مراعاتهم لما يسمّيه «طبائع العمران» فيما ينقلونه من أخبار ويرونه من حكايات، ويستعير هذا المفهوم من طبيعيات عصره، فكما أنّ للأشياء الطبيعية خصائص ثابتة هي بمثابة الطبع (النار تحرق لأنّ من طبعها أن تحرق، والجسم يسقط لأنّ من طبعه أن يتحرّك إلى الأسفل)، فكذلك العمران البشري له هو الآخر طبائعه الخاصة، الشيء الذي يعني وجود ثوابت داخل العمران تنظّم العلاقات بين أجزائه وتتحكّم في سيره وتطوّره، ممّا يجعل الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية تحدث على صورة معيّنة وأشكال محدّدة لا يمكن أن تشذ عنها[22].

و يمكن القول إذن إنّ الحقائق التاريخية لا تفهم إلّا في ضوء دراسة موضوعية لطبيعة العمران والقوانين العلميّة التي تسيّر المجتمعات بالاستناد كذلك على عوائد الناس ومألوفهم المعيشي. والحقيقة التاريخية بصفتها العلميّة تستمد مشروعيّتها من مطابقة الأحداث والوقائع لهذه الطبيعة التي أشرنا إليها. وهكذا، فإنّ قانون المطابقة هو من أهمّ القوانين التي يبنى عليها التاريخ بصفته علما.

خاتمة:

ننتهي في آخر هذا البحث في الفكر التاريخي الخلدوني وعلاقته بفلسفة التاريخ، الغربية خاصة، إلى اعتبار التاريخ نمطا علميا يعبّر عن أرقى درجات الوعي الإنساني. وصحيح أنّ البحث التاريخي يستند دوما إلى تأمّل الأحداث والوقائع في الماضي، ولكنّه مع ذلك، يمثّل بالنسبة إلى الباحث أو المؤرّخ أو عالم الاجتماع أو الفيلسوف، سندا لتأمّل الحاضر واستشراف المستقبل، ففي التاريخ عِبر ودروس لابدّ من استكشافها.

ولكن التاريخ بصفته علما يتطلّب كذلك إخضاع الظاهرة التاريخيّة إلى جملة من الشروط العلمية دونها يسقط العقل في المغالطات والأكاذيب، فيتحوّل التاريخ حينئذ إلى ضرب من الروايات والحكايات التي يغلب عليها الطابع الأسطوري والخرافي، ويفقد رهاناته الإنسانية. وهذه الشروط العلمية التي وضعها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر هي التي تحدد منهج البحث التاريخي اليوم وتحقق مطلب الموضوعية العلمية الذي أصبح شرطا أساسيا لتطوّر العلوم الإنسانية عموما؛ لأنّه يجعلها أكثر دقّة وأقرب ما تكون إلى المصداقية.

21 المقدّمة، فصل في طبيعة العمران في الخليقة، ص27

22 الجابري، محمّد عابد، ما تبقى من الخلدونية، مشروع قراءة نقدية لفكر ابن خلدون، ورد في ندوة: ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، أعمال ندوة المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، الدار العربيّة للكتاب، أبريل 1980، ص280

إنّ نظرة ابن خلدون للتاريخ في علاقته بالوعي الإنساني، وأثره في حاضر المجتمعات الإنسانية ومستقبلها، يجعلنا نصنّف هذا المفكّر العربي ضمن الفلاسفة والمفكّرين أصحاب الفلسفات التاريخية، وليس اعتباره مؤرّخا فقط؛ لأنّه استطاع أن يعي بدور التاريخ في تغيير الواقع والتأثير فيه، حتّى ولو كان ذلك على محمل الضرورة الطبيعية.

نحن في أغلب دراساتنا العربية نصنّف ابن خلدون في خانة المؤرّخين أو علماء الاجتماع أو اعتباره رجل سياسة، ولكن الكثير من النصوص الخلدونية تجعلنا نميل إلى اعتباره فيلسوف التاريخ بامتياز.

قائمة المصادر والمراجع:

بالغة العربيّة:

ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المقدّمة، دار الكتب العلميّة، بيروت 2010

ـ هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة: مقدّمة خول منظومة الفلسفة وتاريخها، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 2022

ـ محمّد عابد الجابري، العصبيّة والدولة: معالم نظريّة خلدونيّة في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت 2001

ـ سالم يافوت، الخلدونيّة في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت 1994

ـ أشغال ندوة المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، الدار العربيّة للكتاب، تونس، أبريل 1980

بالغة الأجنبيّة:

– Bergson, Henri, L'énergie spirituelle, Alcan, Paris 1920

– Marx, Karl, Le Capital, Paris, éd. sociales, 1960

– Schopenhauer, Le monde comme volonté et représentation, P.U.F.1978

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023